

بسم الله الرحمن الرحيم

خُلاصة كتاب: الطريق إلى القرآن

تأليف: إبراهيم السكران

مدخل

يتحدثون عمّا يرونه من فرق مُبهر في حياتهم، وعن فرقٍ عظيمٍ في فهمهم وصحة نظرهم واستقرار تفكيرهم؛ ببركة هذا القرآن.

حديث بعض الصالحين إذ يبثون شجواهم عما يجدونه في أنفسهم بعد تلاوة القرآن.

حال النبي ﷺ إذا راجع ودارس القرآن مع جبريل كيف يكون أجود بالخير من الريح المرسلة كما في البخاري ... فكيف بنفوسنا الضعيفة المحتاجة إلى دوام العلاقة مع هذا القرآن.

الله جل وعلا ينوع ويعدد التوجيهات لتعميق العلاقة مع القرآن.

- فتارةً يحثنا صراحة على التدبر ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [محمد: ٢٤]
- وتارةً يحثنا على الإنصات إليه ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]
- وتارةً يأمرنا بالتفنن في الأداء الصوتي ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]
- يأمرنا بالتهيئة النفسية قبل قراءته بالاستعاذة من الشيطان ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]
- يغرس في نفوسنا استبشاع البعد عن القرآن ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]
- ينبهنا على فضله، وتيسيره للذكر ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧]

١- سطوة القرآن

السطوة الغربية التي تخضع لها النفوس عند سماعه.

اعتنيت عناية بالغة بتتبع قصص وأخبار حديثي العهد بالإسلام.

ما هو أكثر مؤثر يدفع الإنسان الغربي لاعتناق الإسلام؟

سمعوا القرآن وشعروا بشعور غريب استحوذ عليهم ... وهم لا يعرفون اللغة العربية أصلاً!

إنها سطوة القرآن.. والله يقول: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]

فطفق أبو بكر يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بالصلاة ولا القراءة في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وبرز فكان يُصلي فيه ويقرأ القرآن، فيتقصف عليه نساء المشركين وأبنائهم يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بگاء لا يملك دمه حين يقرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين. (رواها البخاري في صحيحه).

ومعنى: يتقصف: أي يزدحمون ويكتظون حوله مأخوذ من بجمال القرآن.

الله - جل وعلا - عرض هذه الظاهرة البشرية أمام القرآن على أنها دليل وحجة.

تأمل معي هذا المشهد المدهش الذي يرويهِ ربنا جل وعلا عن سطوة القرآن في النفوس: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ؕ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١١٠]

استمع إلى انفعال وتأثر قوم آخرين بآيات الوحي، يقول تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًا﴾ [مريم: ٥٨]

وقوم آخرون في عصر الرسالة ذكر الله خبرهم في معرض المدح والتثمين الضمني في صورة أخاذة مبهرة يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]

ليس تأثير القرآن في النفوس والقلوب فقط ... بل - أيضاً - تأثيره الخارجي على الجوارح.

يقول تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّتَانِي تَقْشَعُرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]

لاحظ كيف يرسم القرآن مراحل التأثير، تقشعر الجلود، ثم تلين، إنها لحظة الصدمة بالآيات التي يعقبها الاستسلام الإيمان، بل والاستعداد المفتوح للانقياد لمضامين الآيات.

ما تصنعه الآيات القرآنية من ترويض النفوس والقلوب لخالقها ومولاها.

فإن كنت من هؤلاء؛ فاحمد الله يا أخي الكريم على العافية، وتذكر قول الله سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِلنَّفْسِئَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]

حين يوفقك ربك فيكون لك حزب يومي من كتاب الله، يجب عليك استشعار منة الله وفضله عليك أن أكرمك بهذه السويعة مع كتاب الله. ولكن إذا التفتت النفس لذاتها بعد العمل الصالح نقص مسيرها إلى الله.

وقد نبهنا الله على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١]

وقول الله: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]

الإنسان بعد العبادة يحتاج إلى عبادة أخرى وهي الشكر والحمد. ويحتاج لعبادة الاستعانة قبل العبادة، ويحتاج لعبادة الشكر بعد العبادة. وهذه الاستعانة بالله عامة في كل شيء.

السطوة أصل معناها كما يقول ابن فارس: [أصل يدل على القهر والعلو].

وهذا المعنى نظير وصف الله للقرآن بالإزهاق: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]

ونظير وصف الله للقرآن بالدمغ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]

اللهم اجعلنا من أهل القرآن، اللهم أحي قلوبنا بكتابك، اللهم اجعلنا ممن إذا استمع للقرآن اقشعر جلده ثم لان جلده وقلبه لكلامك، اللهم اجعلنا ممن إذا سمع ما أنزل إلى رسولك تفيض عيوننا بالدمع، اللهم اجعلنا ممن إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً، اللهم إنا نعوذ بك ونلتجئ إليك ونعتصم بجنابك ألا تجعلنا من القاسية قلوبهم من ذكر الله.

٢- تأمل .. كيف انبهروا!

«صحيح البخاري» (١٨٣٩ / ٤): «عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ. أَمْ خُلِقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ. أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُسْتَطِرُّونَ}. كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ.»

هذا وهو مشرك، وفي لحظة عداوة تستعر إثر إعياء القتال، وقد جاء يريد تسليمه أسرى الحرب.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنْذِرِينَ * قَالُوا يَتَّبِعُونَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٠]

وأخبر الله في موضع آخر عمّا استحوذ على هؤلاء الجن من التعجب فقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١-٢]

«صحيح البخاري» (١٩٢٧ / ٤): «عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (اقْرَأْ عَلَيَّ). قَالَ: قُلْتُ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟ قَالَ: (إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي). قَالَ: فَقَرَأْتُ النَّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا}. قَالَ لِي: (كُفَّ، أَوْ أَمْسِكْ). فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَذْرِفَانِ.»

لقد اشتكى رسول الله ﷺ من كفار قومه حين وقعوا في صفة بشعة، فواحسرتاه إن شابهنا هؤلاء الكفار في هذه الصفة التي تدمر منها رسول الله، وجأ بالشكوى إلى الله منها، يقول رسول الله ﷺ في شكواه: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]

القضية لن تكلفنا الكثير، إنما هي دقائق معدودة من يومنا نجعلها حقاً حصرياً لكتاب الله.

٣- منازل الأشعرين

القرآن إذا خيم سكون الليل يكون عالماً آخر.. ثمة قدر إضافي في جلال القرآن لحظة سكون الليل.

«صحيح البخاري» (١٥٤٧ / ٤): «عَنْ أَبِي مُوسَى: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (إِنِّي لَأَعْرِفُ أَصْوَاتَ رُفَقَةِ الْأَشْعَرِيِّينَ بِالْقُرْآنِ حِينَ يَدْخُلُونَ بِاللَّيْلِ، وَأَعْرِفُ مَنَازِلَهُمْ مِنْ أَصْوَاتِهِمْ بِالْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَرِ مَنَازِلَهُمْ حِينَ نَزَلُوا بِالنَّهَارِ»

النبي ﷺ كان يسمع القرآن بالنهار قطعاً، فلماذا جذبه قراءة الأشعرين وصار يتلفت إلى منازلهم إذن؟ لا أدري. لكنني أميل إلى أنها أسرار القرآن بالليل.

«صحيح مسلم» (١٩٣ / ٢): «عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي مُوسَى: لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ! لَقَدْ أُوتِيتَ مَرْمَارًا مِنْ مَرَامِيرِ آلِ دَاوُدَ.»

ففي صحيح البخاري عن أسيد بن حضير قال: "بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال رسول الله "وتدري

ما ذاك؟" قال: لا. قال رسول الله: " تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم"

«صحيح البخاري» (١٩١٦ / ٤): «عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ قَالَ:

بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَفَرَسُهُ مَرْبُوطٌ عِنْدَهُ، إِذْ جَالَتِ الْفَرَسُ، فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ، فَقَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ، فَسَكَتَ وَسَكَتَتِ الْفَرَسُ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ، فَانْصَرَفَ، وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا، فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ، فَلَمَّا اجْتَرَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى مَا يَرَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: (اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ).

قَالَ: فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظِّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ، فَخَرَجْتُ حَتَّى لَا أَرَاهَا، قَالَ: (وَتَدْرِي مَا ذَاكَ). قَالَ: لَا، قَالَ: (تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَتْ لِمَا تَصَوَّتْ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحْتَ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لَا تَتَوَارَى مِنْهُمْ).

«سنن النسائي» (٢٥٧ / ٣): عَنْ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي السَّائِبُ بْنُ يَزِيدَ «أَنَّ شُرَيْحًا الْحَضْرَمِيَّ ذَكَرَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا يَتَوَسَّدُ الْقُرْآنَ».

ما معنى "لا يتوسد القرآن"؟ المعنى أنه لا ينام بالليل ويترك حظه من القرآن، لكن البلاغة النبوية العظيمة صوّرت من ينام عن القرآن كأنه اتخذ القرآن وسادة!

والنص له وجهان، إما أن يكون الرسول ﷺ يمدح من لا يتوسد القرآن، أو يذم من يتوسد القرآن، ورجح ابن الجوزي في غريبه والسندي في حاشيته الوجه الأول.

الله تعالى أثنى مرة على قوم بذلك، فقال تعالى في وصفهم: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]

الله جل جلاله يثمن منهم هذا الموقف ويخلده في كتابه العظيم.

أخذت مرة أتأمل مثل هذه الأخبار القرآنية النبوية عن جلال القرآن في الليل، وأخذت أتساءل: ما سبب ذلك يا ترى؟ هل هناك تفسير علمي لذلك؟

في أصل التكوين البشري يحتاج الإنسان إلى السكينة بالليل، والوحي الإلهي من أعظم أسباب السكينة، ولذلك فإن المعرض عن القرآن يصاب بالآلام النفسية كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]

تعليق التاعب: الآية لا تعني بالضرورة الآلام النفسية.

٤- مع القلوب الصخرية

دعنا يا أخي ندرش دردشة المحبوسين يتشاجون لبعضهم كيف يهربون من معتقلات خطاياهم. ووجدت العلاج الحقيقي الفعال الناجع المذهل في دواء واحد فقط، دواء واحد لا غير، وكلما استعملته رأيت الشفاء في نفسي، وكلما ابتعدت عنه عادت لي أسقامي، هذا العلاج هو بكل اختصار: تدبر القرآن.

كل تقصير يقع فيه الإنسان، سواء كان تقصيراً علمياً بالتأويل والتحريف للشرعية، أو كان تقصيراً سلوكياً بالرضوخ لدواعي الشهوة، فإنه فرع عن قسوة القلب.

قسوة القلب ناشئة عن البعد عن الوحي، فإذا قسا القلب تجرأ الإنسان على الميل بالشرعية مع هواه، وإذا قسا القلب تهاون الإنسان في الطاعات واستثقلها، وإذا قسا القلب عظمت الدنيا في عين المرء فأقبل عليها وأهمل حمل رسالة الإسلام للناس، وإذا قسا القلب ضعفت الغيرة والحمية لدين الله.

العلاج لما يحيك في هذه الصدور هو مداواتها بتدبر القرآن. بالله عليك تأمل في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]

في الصدور شهوات تتشوف، وفي الصدور شبهات تنبح

فإذا شفيت الصدور وجدت خفة نفس في الطاعات، وإذا شفيت الصدور انقادت للنصوص بكل سلاسة ونفرت من التأويل والتحريف، وإذا شفيت الصدور تعلقت بالآخرة واستهانت بحطام الدنيا، وإذا شفيت الصدور امتلأت بحمل هم إظهار الهدى ودين الحق على الدين كله.

هل تظن يا أخي أن تحريف معاني الشريعة لا صلة له بقسوة القلب؟! أفلا تقرأ معي يا أخي قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقُضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣]

٥- الشاردون

حالات الانحراف بينها تفاوت كبير، فبعضهم مشكلته "عِلْمِيَّة" بسبب رهبة عقول ثقافية كبيرة انهزم أمامها، وبعضهم مشكلته "سُلُوكِيَّة" بسبب ضعفه أمام لذائذ اللهو والترفيه، فإما تعثره شبهة تقوده للتمرُّغ في الشَّهوات، وإمَّا تغلبه شهوة فيتطلَّب لها الشُّبهات والمخارج والحيل.

القرآن له سر عجيب في صناعة الإخبارات في النفس البشرية: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]

مفتاح الهداية مقارنة هدي القرآن بسلوكيات التيارات الفكرية.

تغطية وتبرير التقصير بحيل التأويل الذي جعله الله سببا للمسح: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]

مجرد المعصية بالصيد في اليوم المحرم لا تستحق المسح، فقد جرى من بني إسرائيل ما هو أكثر من ذلك ولم يمسحهم الله، ولكن الاحتياي على النص بالتأويل ضاعف شناعتها عند الله جل وعلا.

تعظيم القرآن لمرجعية الصحابة في فهم الإسلام، وربطه فهم الإسلام بتجربة بشرية، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ آهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]

الوحي ليس نصاً مفتوحاً، بل هو مرتبط بالاهتداء بتجربة بشرية سابقة، فيأمرنا صريحا أن نؤمن كما آمن الصحابة، وهذا كله يبين أن الإسلام ليس فكرة مجردة مفتوحة الدلالات يذهب الناس في تفسيرها كل مذهب، بل هناك "نموذج سابق" حاكم للتفسيرات اللاحقة للنص.

بيان القرآن لتفاهة الدنيا، وما في القرآن من بيان الله لحقارة الكافر وانحطاطه حيث جعله القرآن في مرتبة الأنعام والدواب والحمير والكلاب والنجاسة والرجس والجهل واللاعقل والعمى والصمم والبكم والضلال والحيرة.

ما في القرآن من عناية شديدة بالتحفظ في العلاقة بين الجنسين.

٦- تطويل الطريق

ادعاء: ضرورة مقاومة وتفنيد الأفكار الضالة الجديدة عبر دراسات فكرية موسعة؛ وذلك من أجل الحفاظ على: سلامة التصورات الإسلامية من الاجتياح العلماني المعاصر، وهذا يُعتبر: المبالغة في التعويل على الدراسات الفكرية، لأن: أمر الانحرافات الفكرية المعاصرة أسهل بكثير مما نتصور.

لو نجحنا في تعبئة الشباب المسلم للإقبال على القرآن، وتدبر القرآن، ومدارسة معاني القرآن، لتهافت أمام الشاب المسلم -الباحث عن الحق- كل التحريفات الفكرية المعاصرة ريثما يختم أول "ختمة تدبر".

قراءة واحدة صادقة لكتاب الله، تصنع في العقل المسلم ما لا تصنعه كل المطولات الفكرية بلغتها الباذخة وخيلائها الاصطلاحي، فهي كفيلة بقلب كل حيل الخطاب الفكري المعاصر رأساً على عقب.

من كان معه إيمان وخوف من الله فسيحمله على الانقياد والانصياع الله سبحانه.

من كانت نفسيته المعرفية سوية، أعني أنها تنظر في "جوهر البرهان" وليس في "شكليات الخطاب" فلن يحتاج إلا لقراءة القرآن بتجرّد.

قال الإمام ابن تيمية في حادثة مشابهة في كتابه "الرد على المنطقيين": [وبعض الناس: يكون الطريق كلما كان أدق وأخفى وأكثر مقدمات وأطول كان أنفع له، لأن نفسه اعتادت النظر الطويل في الأمور الدقيقة، فإذا كان الدليل قليل المقدمات، أو كانت جلية، لم تفرح نفسه به، فإن من الناس من إذا عرف ما يعرفه جمهور الناس وعمومهم، أو ما يمكن غير الأذكياء معرفته، لم يكن عند نفسه قد امتاز عنهم بعلم، فيحب معرفة الأمور الخفية الدقيقة الكثيرة المقدمات]

أعطوني ختمة واحدة بتجرّد، أعطيكم مسلماً حنيفاً سنّياً سلفياً.

٧- من مناطق التدبر

ماذا أتدبر بالضبط في القرآن؟

أعظم وجوه ومفاتيح الانتفاع بالقرآن تدبر ما عرضه القرآن من: حقائق العلم بالله.

وكثيراً من المنتسبين للفكر المعاصر يظن الأهم في القرآن هو التشريعات العملية، وأما باب العلم الإلهي فهو قضية ثانوية، ولا يعرف أن هذا هو المقصود الأجل والأعظم.

قال الإمام ابن تيمية: [إن الخطاب العلمي في القرآن أشرف من الخطاب العملي قدرًا وصفة] (درء التعارض، ٥ / ٣٥٨).

وأنا شخصياً إذا التقيت بشخصية غربية متميزة في الفكر أو القانون أو غيرها من العلوم أجاهد نفسي مجاهدة على احترام تميزه، لأنني كلما رأيتهم في غاية الجهل بالله سبحانه وتعالى،

امتلأت نفسي إزراءً بهم، ما فائدة أن تعرف تفاصيل جزء معين من العلوم وأنت جاهل بأعظم مطلوب للإنسان.

من يتأمل في حال أئمة السلف، ستستحوذ عليه الدهشة من عمق علمهم بالقرآن وما فيه من أسرار المعرفة الإلهية، وشدة استحضر الآيات وربط ما بينها، ليست معرفة آحاد وأفراد الألفاظ فقط، بل معرفة السلف بالقرآن مركبة، فتجدهم يلاحظون منظومة لوازم معاني القرآن، ويستخلصون في تقريراتهم حصيلة توازنات هذه المعاني القرآنية.

ومن وجوه الانتفاع بالقرآن تدبر أخبار الأنبياء التي ساقها القرآن وكررها في مواضع متعددة، فهي "نماذج" يريد القرآن أن يوصل من خلالها رسائل تضمينية، فإن تدبر أخبار الأنبياء، وأخبار الطغاة، وأخبار الصالحين، في القرآن، ومحاولة تفهم وتحليل الرسالة الضمنية فيها؛ من أعظم مفاتيح الانتفاع بالقرآن.

ومن أعظم وجوه الانتفاع بالقرآن أن يضع الإنسان أمامه على طاولة التدبر كل الخطابات الفكرية المعاصرة عن النهضة والحضارة والتقدم والرقى والإصلاح والاستنارة الخ، ويضع كل القضايا التي يرون أنها هي معيار التقدم والرقى، ثم يتدبر قارئ القرآن أعمال الإيمان التي عرضها القرآن كمعيار للتقدم والرقى.

القلب المعمور بالتقوى يبصر ما لا يبصره من أغطشت عينه النزوات.

الإمام ابن تيمية: [ومن المعلوم أنه في تفاصيل آيات القرآن من العلم والإيمان ما يتفاضل الناس فيه تفاضلاً لا ينضبط لنا، والقرآن الذي يقرأه الناس بالليل والنهار يتفاضلون في فهمه تفاضلاً عظيماً وقد رفع الله بعض الناس على بعض درجات] (درء التعارض: ٧ / ٤٢٧).

يجب أن يستحضر متدبر القرآن أن جمهور قرارات القرآن وأحكامه على الأعيان والأشياء إنما هي "أمثال"، بمعنى أن القرآن يقدم في الأصل نماذج.

من أعرض عن تدبر القرآن فإن الله قدر عليه أصلاً ذلك الانصراف لأن الله تعالى سبق في علمه أن هذا الإنسان لا خير فيه، ولو كان في هذا المعرض خير لوفقه الله للتدبر والانتفاع بالقرآن، وقد شرح القرآن هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]

هذا القرآن ينبوع يتنافس الناس في الارتشاف منه بقدر منازلهم، كما قال الإمام ابن تيمية: [والقرآن مورد يردده الخلق كلهم، وكل ينال منه على مقدار ما قسم الله له] (درء التعارض: ٧ / ٤٢٧).

«صحيح البخاري» (٤ / ١٦٢٣): «عَنْ أَبِي سَعِيدٍ بْنِ الْمَعْلَى قَالَ:

كُنْتُ أَصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أَصَلِّي، فَقَالَ: (أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: {اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}). ثُمَّ قَالَ لِي: (لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّورِ فِي الْقُرْآنِ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ). ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ: (لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ). قَالَ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ: هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ).»

كم من الوقت منحناه لتدبر هذه السورة العظيمة والتساؤل عن مغزى هذا التعظيم الإلهي لها؟ فبالله عليك تأمل في هذه الآيات الثلاث التي ذكر الله تعالى في الحديث القدسي في صحيح مسلم أنها نصف الفاتحة، حين قال: (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين).

«صحيح مسلم» (٢ / ٩): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

«قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمَدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: {الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: {مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ} قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً: فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ.»

فيما يخص موضوع: جدل المذاهب الفكرية المعاصرة حول قضية: (ترتيب الأولويات). سألتك بالله هل رأيت واحدًا منهم يتحدث عن الثناء على الله وتوقير الله وتعظيم الله باعتباره أولوية من أولويات الإصلاح؟

كيف تحيروا في أعظم المطالب، وبعضهم فيه ذكاء واطلاع، ولكن هذه الأمور بابها التوفيق الإلهي.

تقديم المعمول (إياك) على العامل (نعبد) يفيد الحصر، فلا يعبد إلا الله، والعبادة لفظ شامل، فإذا نطقت بهاته الجملة التي لا تتجاوز كلمتين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تهاوت أمام ناظريك كل المألوهات من دون الله.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هي جوهر مشروع الإصلاح، وهي قاعدة النهضة، وهي مختبر الحضارة، وهي معيار التقدم، وهي خطة التنمية.

المطلوب الأكبر وهو (العبادة) لا يكون إلا بـ (الاستعانة).

إذا كان الله سبحانه اختار أن يكون دعاء أعظم سورة في القرآن هو "سؤال الهداية" فهذا يعني أن الضلال وشيك خطير مخوف، وإلا لم يفرد الله سؤال بهذه الخصوصية، لو كان الضلال أمراً مُستبعداً.

في المواضع العظيمة، لا يُختار من الدعاء إلا أعظمه، وأعظم الدعاء ما خاف الإنسان من ضده. دل هذا على أننا نسير في حقل ألغام من الانحرافات، دل هذا على أن هذه الحياة الدنيا محفوفة بكلايب الباطل تلتقط الناس يمناً ويسرة.

الله تعالى يوضح لنا الصراط بأنه صراط الذين أنعم عليهم، ومن أعظم من يدخل هذا الوصف أصحاب النبي ﷺ.

يقع الصراط المستقيم بين طريقين، طريق المغضوب عليهم، وهم الذين حصلوا العلم وأهملوا العمل، وطريق الضالين، وهم الذين اجتهدوا في العمل بلا علم، وأهل الصراط المستقيم جمعوا العلم والعمل.

٩- دَوِّي اللَّيَالِي الرَّمْضَانِيَّة

المساجد صارت تتفاوت كثيراً في توقيت صلاتي التراويح والتهجد بحسب ما يرتاح له أهل كل حي ويتوافقون عليه.

آيات قرآنية كثيرة تُشير لخصوصية القرآن في رمضان.

ليس فقط إنزال القرآن اختار الله له رمضان، بل حتى (مراجعة القرآن) مع النبي ﷺ اختار الله لها رمضان!

«صحيح البخاري» (٤ / ١٩١١): «عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ، وَأَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، لِأَنَّ جَبْرِيلَ كَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ حَتَّى يَنْسَلِخَ، يَعْزِضُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جَبْرِيلُ، كَانَ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ.»

الساعات الرمضانية هي أشرف الأزمان وأليقها بالقرآن.

أبو العباس ابن تيمية رحمه الله يقول: [بل من أجل مقصود التراويح قراءة القرآن فيها، ليسمع المسلمون كلام الله] (الفتاوى ٢٣ / ١٢٢).

الصيام يهذب النفس البشرية فتتهياً لاستقبال القرآن، ففي أيام الصيام تكون النفس هادئة ساكنة بسبب ترك فضول الطعام، وهذا يعني أن من أعظم ما يعين على تدبر القرآن وفهمه التَّقَلُّلُ من

الفضول، مثل فضول الطعام، وفضول الخلطة مع الناس، وفضول النظر، وفضول السماع، وفضول تصفح الإنترنت.

١٠- الحبل النّاطم في كتاب الله

كنت أتأمل كيف ابتلى الله العباد بأمور توافق هواهم، وبأمور أخرى تعارضها، فأمن بعض الناس بما يوافق هواه وترك غيره. والمراد من ذلك شيء آخر، شيء آخر يختلف كثيراً عما يتصور كثير ممن تضررت عقولهم بالثقافة الغربية المادية.

المراد عمارة النفوس بتعظيم الله والاستسلام المطلق له.

وكنت أتأمل كيف يذكر الله النسخ في القرآن، ثم يختم ذلك ببيان دلالة هذه الظاهرة التشريعية، وهي عمارة النفوس بتعظيم القدرة الإلهية.

وكنت أتأمل كيف ذكر الله مسألة من مسائل شروط الصلاة وهي (استقبال القبلة)، ثم تغييرها من بيت المقدس إلى الكعبة، وبرغم كونها مسألة فقهية بحتة، إلا أن القرآن ينبهنا أن وظيفة هذه الحادثة التاريخية كلها هي "اختبار" النفوس في مدى تعظيمها واستسلامها لله؟ هذا جوهر القضية!

آيات القصاص تختتم بـ "تقوى الله": ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]

وآيات الصيام تلحق أيضاً بالتقوى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]

وآيات الوصية تختتم كذلك بالتقوى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]

وكنت أتأمل كيف ذكر الله حالة "الخوف" من الأعداء ونحوها، فلم يسقط الصلاة، بل أمر الله بها حتى في تلك الأحوال الصعبة.

القرآن يريد النفس البشرية مشدودة الارتباط بالله جل وعلا في جميع الأحوال، يريد من المسلم أن يكون الله حاضراً في كل سكونة وحركة.

وحتى في المشاعر بين الزوجين إذا سارت الأمور في غير مجاريها فإن القرآن يحرك في النفوس استحضار الغيبات والأبعاد الإيمانية حيث يقول تعالى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُنَّ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]

بالله عليك تخيل المسلم وقد لبس لأمة الحرب، وصار على خط المواجهة، والعدو يتربص، والنفوس مضطربة قلقه، والأزيز يمخر الأجواء، والدم تحت الأرجل، ومع ذلك لم يقل الله دعوا الصلاة حتى تنتهوا، بل لم يقل دعوا "صلاة الجماعة"! وإنما شرح لهم كيف يصلوا جماعة في هذه اللحظات العصيبة.

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٢-١٠٣]

هل تعرف في الدنيا كلها شاهد على حب وتعظيم الله جل وعلا للارتباط بالله واستمرار مناجاته أكثر من ذلك!

بل هل يوجد رجل فيه شيء من الورع وخوف الله يهمل صلاة الجماعة وهو في حال الأمن والرفاهية وعصر وسائل الراحة؟ وهو يرى ربه تعالى يطلب من المقاتلين صلاة الجماعة ويشرح لهم تفاصيل صفتها بدقة، وهم تحت احتمالات القصف والإغارة؟!

هل تستيقظ نفوس افترشت سجاداتها في غرفها ومكاتبها تصلي "آحادًا" لتتأمل كيف يطلب الله صلاة "الجماعة" بين السيوف والسهام والدروع والخنادق؟!

الآن انتهى المقاتل من صلاة الجماعة، فيرشده القرآن لاستمرار ذكر الله.

واصلت الآية الحديث عن انتهاء حالة الخوف، وبدء حالة الاطمئنان، ويتصل الكلام مرة أخرى لربط النفوس بالله.

إنها بوابة استحضر الله وتذكره، يقول الله سبحانه: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]

هكذا بكل وضوح، يقيم المسلمون الصلاة ليتذكرون الله جل وعلا.

حتى تعليم الجوارح وكلاب الصيد يجب أن يستحضر المؤمن أنها تعليم مما علم الله، ما أشد كثافة حضور العلاقة بالله في القرآن. ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤]

ذكر الله تعالى قصة موسى ﷺ إذ أمر قومه بدخول (الأرض المقدسة) والتي ذكر بعض أهل التفسير [١] الطور وما حولها.

القرآن يكشف دائرة الضوء على أمر آخر أهم وهو أن يرتبط الفؤاد بالله سبحانه وتعالى وهو يصارع هذه البلاءات، يقول الله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]

ويقول ربنا في موضع آخر مشابه: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مَن عِبَادِهِ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]

لعلك لمحت معنى آخر، وهو أن الآيتين كليهما لم يتحدثا فقط عن أن كاشف الضر هو الله، بل المدهش أنهما أشارتا كذلك إلى أن من مسك بهذا الضر هو الله سبحانه أيضاً!

فصار مبتدأ الأمر ومنتهاه من الله وإلى الله، فماذا بقي في القلب لغير الله!

هذه التغيرات التي تطرأ على الفرد والمجتمع بشكل عام يريد بها الله أن نعود إليه كما يقول الله: ﴿وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]

ومن التعابير الشمولية التي استعملها القرآن لتربية هذه الحقيقة الكبرى في النفوس قول الله سبحانه في خواتيم سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَنُسَكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]

قد يعرف الكثير من الناس اليوم كيف يصلي لله، وكيف يحج لله، لكن القليل من الناس يدرك كيف يحيا حياته لله، وكيف يموت لله؟! وهذه الآية العظيمة تزكي النفوس بهذا المقام العظيم الذي هو لب القرآن.

وإذا تأمل متدبر القرآن هذه الآية ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] لوجد فيها إثباتاً ونفيّاً، فأثبت لرسول الله رمياً، ونفى عنه رمياً آخر، فالمثبت هو الحذف والإلقاء، والمنفي هو الإيصال والتبليغ.

في قصّة الثلاثة الذين خَلَفُوا: ليس العجب فقط أنهم تعلقوا بالله، بل العجب إشارة الآية إلى المبدأ والمنتهى، أعني إشارتها إلى أنه لا نجاة من الله إلا إلى الله! فالله هاهنا هو المخوف، والله نفسه هو الملاذ! هذه هي القلوب التي يحبها الله.

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]

ليس من الأدب أن تدعوا الله أثناء الأزمة ثم تغفل عن التعلق بالله بعد تحسن الأحوال.

متدبر القرآن يجد في سورة الكهف تعريفاً مدهشاً للصحة الصالحة، يقول الله تبارك وتعالى لنبيه: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]

واخجلاه من زمانٍ صرنا نستحي فيه من حقائق القرآن!

شاهد كيف يشرح موسى وظيفة الاستعانة بأخيه هارون في سورة طه: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٢٩-٣٦]

لو قدّم اليوم بعض الدعاة نصيحة للتوّار على الحكومات العربية الفاسدة بأن يكثروا من (ذكر الله) لعدّ كثير من المُستغربين ذلك دروشة وسداجة!

ليس المطلوب فقط تنفيذ أحكام القرآن، بل لابد أن يقوم في القلب معنى آخر يظهر به "ذل العبودية" الله سبحانه وتعالى، وهو طأطأة القلب ورقته فور تلقيه القرآن، يقول الله: ﴿وَلْيَعْلَمْ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ۖ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]

وأما الذي رأيته شخصياً فلا أعرف مطلوباً عملياً رده القرآن بعد التوحيد مثل موضوع (ذكر الله). أما المطلوب الخبري بعد التوحيد فربما كان (المعاد) والله أعلم.

وما أحسن قول أبي العباس ابن تيمية رحمه الله: [والمقصود هنا أن الخليلين -محمد وإبراهيم- هما أكمل خاصة الخاصة توحيداً، وكمال توحيدهما بتحقيق أفراد الألوهية، وهو أن لا يبقى في القلب شيء لغير الله أصلاً] (منهاج السنة: ٥ / ٣٥٥).

اللهم لا تجعل في قلبي وقلوب إخواني شيء لغيرك أصلاً.

إن الدعاة إلى الله الذي يحاولون دوماً توظيف الأحداث للتذكير بالله هؤلاء أعلم الناس بحقائق كتاب الله، وإن أولئك المفتونين الذين يسخرون من ربط الأحداث بالله، ويسمون ذلك (المبالغة في تدين الحياة العامة) تشويهاً لهذا الدور النبيل؛ هؤلاء هم أجهل الناس بدين الله الذي وضحه في كتابه ببيان هو في غاية البيان.

نقل الإمام ابن تيمية: [ولهذا قال بعض السلف: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله] (الفتاوى: ١٠ / ٣٣).

قال الإمام ابن تيمية: [فإن القلب بيت الإيمان بالله تعالى ومعرفته ومحبته] (الفتاوى: ١٨ / ١٢٢).

وقال الإمام ابن القيم في النونية: [فالقلب بيت الرب جل جلاله، حباً وإخلاصاً مع الإحسان] (النونية بتحقيق العمير: ٣٦٦).

المقصود عمارة القلوب بالأعمال التي يحبها الله سبحانه، وخلوصه من الالتفات والانقياد لغير الله، على طريقة التأله السلفي المهتدي.

فما أقرب الساعة التي سيسألنا الله جميعاً عن تحقيق مراده، وسيكون السؤال حينها على (أساس القرآن) يقول الله: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰٰٓ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦]

خاتمة

هذه الجولات السريعة في عظمة كتاب الله، وأسرار التدبر المهيبة.

- قواعد التدبر الأمثل للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني رحمه الله.
- تحزيب القرآن للشيخ د. عبد العزيز الحربي.
- تعليم تدبر القرآن الكريم للدكتور هاشم الأهدل.
- المراحل الثمان لطالب فهم القرآن للدكتور هاشم الأهدل.
- فن التدبر للشيخ د. عصام العويد.

أولاً وقبل كل شيء يجب على الإنسان أن يتضرع إلى الله ويدعوه ويلج عليه أن يجعله من أهل القرآن، وأن يفتح عليه في فهم كتابه، والعمل به، فإن الإنسان لا يفتح عليه في العبودية بمجرد الجهود الشخصية والتخطيط للإنجاز. وكل أبواب الخير من العلم والديانة إنما هي من باب الاستعانة.

ثانياً: يحتاج المسلم إلى وضع حزب يومي للتدبر.

فجعل النبي ﷺ النطاق الزمني لتحزيب القرآن بين (شهر - أسبوع) فلا يكون أكثر من شهر ولا أقل من أسبوع.

«سنن أبي داود» (٢ / ٥٦ ت محيي الدين عبد الحميد): «قَالَ أَوْسٌ: سَأَلْتُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَيْفَ يُحَرِّبُونَ الْقُرْآنَ، قَالُوا: ثَلَاثٌ، وَخَمْسٌ، وَسَبْعٌ، وَتِسْعٌ، وَإِحْدَى عَشْرَةً، وَثَلَاثَ عَشْرَةً، وَحِزْبُ الْمُفْصَلِ وَحْدَهُ»

يقول الإمام ابن تيمية: [فالصحابة إنما كانوا يحزبونه سورًا تامّة، لا يحزبون السورة الواحدة] (الفتاوى: ١٣ / ٤٠٨).

ومن الرائع ألا يُغلب الإنسان على ورده من التدبر مهما كانت الظروف، والورد اليومي من القرآن كما سمعت أحد الصالحين يقول: في اليوم الأول كالجبل وفي الثاني كنصف الجبل وفي الثالث كلا جبل وفي اليوم الرابع مثل الغداء الذي تتألم لفقده.

ثالثاً: أن يكون الأصل هو التدبر الشخصي، والتفسير مُعين.

والقرآن كما قسمه ابن عباس أربع مراتب [التفسير على أربعة أوجه: تفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العرب من كلامها وتفسير تعرفه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله]. ليس كل القرآن يحتاج لتفسير.

فيقرأ الإنسان في المصاحف المهمشة بالتفسير

- التفسير الميسر الصادر عن مجمع الملك فهد.
- تفسير ابن سعدي.
- تفسير الجلالين.

الإمام العلامة أضخم مرجعية فقهية سنية معاصرة ابن عثيمين رحمه الله حين سُئل عن طريقة طلب العلم وأولى العلوم بالعناية والاهتمام قال: [نقول: ابدأ بالتفسير قبل كل شيء، لكن هذا لا يعني ألا تقرأ غيره، لكن ركز أولاً على علم التفسير. وطريقة ذلك: أن تفكر أنت أولاً في معنى الآية، قبل أن تراجع الكتب، فإذا تقرر عندك شيء فارجع إلى الكتب، وذلك لأجل أن تمرن نفسك على معرفة معاني كتاب الله بنفسك، ثم إن الإنسان قد يفتح الله عليه من المعاني ما لا يجده في كتب التفسير، خصوصاً إذا ترعرع في العلم وبلغ مرتبة فيه فإنه قد يفتح له من خزائن هذا القرآن الكريم ما لم يجده في غيره] (الباب المفتوح، لقاء ٨٦)

رابعاً: من أجمل الأمور أن يضع الإنسان لأهل بيته برنامجاً في التفسير فيقرأون ويتبارون في الاستنباط ثم يراجعون التفسيرات المختصرة، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤]

فالنبي ﷺ كان يتلو على نساءه القرآن، وهذا له أثر لا يتصوره الكثيرون في تحبيب الأهل في القرآن والإقبال على الاستنباط منه.

هذا القرآن عجيب في تصحيح المفاهيم وتزكية النظرات والتصورات.

خامساً: لا أعلم درساً شرعياً في كل علوم الإسلام أسسه النبي ﷺ وأصله نظرياً بنفسه إلا تدارس القرآن

«صحيح مسلم» (٨ / ٧١): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كَرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كَرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارِسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَعَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ.»

ولقد تأملت سيرة الصحابة في سير أعلام النبلاء، وبعض طبقات ابن سعد، وبعض حلية أبي نعيم؛ فها لني والله ما رأيت من إقبالهم وتكثيف جهودهم في القرآن.

ابن تيمية، حين اعتقل المرة الأخيرة في قلعة دمشق وسحبت منه الكتب والأقلام أقبل على القرآن وقال: [قد فتح الله علي في هذه المرة من معاني القرآن ومن أصول العلم بأشياء كان كثير من العلماء يتمنوا **وندمت على تضضيع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن.**] (العقود الدرية: ٤٤).

هذا أبو العباس يندم على تضضيع أكثر أوقاته في غير معاني القرآن، برغم أنه من أئمة التفسير أصلاً! فماذا نقول نحن المقصرين مع كتاب الله؟!

اللهم اجعلنا من أهل القرآن.

الحمد لله رب العالمين